التعاون الروسي- الصيني لمواجهة الهيمنة الأمريكية: "منظمة شنغهاي نموذجا"

Russian- Chinese Cooperation To Confront American Hegemony: "The Shanghai Organization As A Model"



سمير حمياز

جامعة بومرداس، الجزائر، samirhamiaz@hotmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/02/17 **تاريخ القبول:** 2020/03/28 **تاريخ النشر:** 2020/07/01

ملخص:

تهدف هذه الدراسة، إلى البحث في منظمة شنغهاي للتعاون، التي تحظى بثقل جيواستراتيجي وبمكانة وازنة في النظام الدولي، من خلال الانطلاق من إشكالية فحواها: إلى أي مدى يمكن اعتبار أن منظمة شنغهاي للتعاون تشكل إطار إستراتيجي لمأسسة الجهود الروسية-الصينية لمواجهة الهيمنة الأمريكية في الفضاء الأوراسي وعلى مستوى النظام الدولي؟ وقد خلص هذا البحث إلى مجموعة من النتائج، ومن ذلك، أن منظمة شنغهاي تحولت إلى أداة إستراتيجية يرتكز عليها المحور الروسي- الصيني لمناهضة التغلغل الأمريكي- الأطلسي في الفضاء الأوراسي، كما تحولت إلى إطار فعال لمأسسة العمل المشترك الكفيل بتغيير التوازنات الدولية القائمة، والدعوة إلى بناء نظام دولي متعدد الأقطاب، يضمن لها هامش أوسع من المناورة ومن حرية العمل في السياسة الدولية.

الكلمات المفتاحية: *التعاون؛ المحور الروسي- الصيني؛ منظمة شنغهاي؛ الهيمنة الأمريكية؛ النظام الدولي.*

Abstract:

This study aims to research in the Shanghai Cooperation Organization, which has geostrategic importance in the international system, by starting from a problematic content: How did the Shanghai Cooperation Organization become a strategic framework to institutionalize Russian-Chinese efforts to confront American hegemony in the Eurasian region and at the level of the international system?. This research concluded a set of results, the most important of which is that the Shanghai organization has turned into a strategic tool used by the Russian-Chinese axis to confront the American-Atlantic penetration in the Eurasian region, and an effective framework to institutionalize common efforts capable of changing existing international balances and calling for building an international system Multipolar, ensuring a broader margin of maneuver in international politics.

Keywords*: Cooperation; Russian-Chinese axis; Shanghai Organization; American Hegemony; International Order.*

* المؤلف المرسل: سمير حمياز. samirhamiaz@hotmail.com

مقدمة:

شهدت العلاقات الروسية – الصينية، تاريخ حافل من العداء الأمني، انتهى إلى اشتباكات مسلحة سنة 1969، وخصومة إيديولوجية على زعامة العالم الاشتراكي، وخلافات تاريخية ترجع إلى التوسع الروسي القيصري في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والذي تمثل في اتفاقيات حدودية خسرت الصين من خلالها أراض شاسعة من أقاليمها. بيد أن الانهيار الكبير للاتحاد السوفياتي ودخول العالم في عصر **السلام الأمريكي "Pax Americana"**، باعتبار الولايات المتحدة هي القوة العظمى الوحيدة التي أفرزتها التوازنات الدولية لعالم ما بعد الحرب الباردة، جعل العلاقات الروسية– الصينية تهتدي إلى حالة من التطبيع، وإلى سلسلة من التفاهمات توجت بتوقيع اتفاقية شراكة إستراتيجية شاملة سنة 1996، مبنية على أساس من الثقة والصداقة و علاقات حسن الجوار بين موسكو وبكين.

ومن الثابت أن التحديات التي فرضتها الأحادية الأمريكية "American Unilateralism" خاصة بعد أحداث 11 سبتمبر 2001، والتي تمثلت أساسا في الانفراد بالقرار العالمي، التدخلات العسكرية الانفرادية، الانتهاكات الصارخة للشرعية الدولية ولتعددية الأطراف"Multilateralism"، فضلا عن التغلغل الأمريكي-الأطلسي في الفضاء الأوراسي لتشديد الطوق الإستراتيجي على روسيا والصين، أدت إلى دفع العلاقات الروسية-الصينية إلى المزيد من التقارب والتعاون لمواجهة التحديات الإستراتيجية المشتركة التي تفرضها الهيمنة الأمريكية.

وتأسيسا على ذلك، حاول المحور الروسي-الصيني جعل منظمة شنغهاي للتعاون "SCO" " Shanghai Cooperation Organization" كإطار لمأسسة الجهود وتعبئة القوى، ومن ثم توجيه الثقل الجيواستراتيجي الذي تتمتع به هذه المنظمة من حيث جعلها كأداة **وكنقطة ارتكاز إستراتيجية** لمناهضة الهيمنة الأحادية الأمريكية، ليس فقط في الفضاء الأوراسي، وإنما أيضا على الساحة الدولية، من خلال الدعوة إلى بناء نظام دولي متعدد الأقطاب يضمن لها هامش أوسع من المناورة في السياسة الدولية.

على ضوء ما سبق، تحاول هذه الدراسة معالجة الإشكالية التي فحواها:

إلى أي مدى يمكن اعتبار أن منظمة شنغهاي للتعاون تشكل إطار إستراتيجي لمأسسة جهود المحور الروسي-الصيني لمواجهة الهيمنة الأمريكية في الفضاء الأوراسي وعلى مستوى النظام الدولي؟.

وتتفرع هذه الإشكالية إلى التساؤلات الفرعية التالية:

- ما هي المكانة والثقل الذي تحظى به منظمة شنغهاي للتعاون في النظام الدولي؟
- كيف ساهمت الأحادية الأمريكية في تعزيز التقارب والتعاون الروسي-الصيني في إطار منظمة شنغهاي؟
- فيما تتمثل التحديات الإستراتيجية المشتركة التي تفرضها الهيمنة الأمريكية على كل من روسيا والصين؟
- كيف حاول المحور الروسي- الصيني أن يتخذ من منظمة شنغهاي للتعاون كأداة إستراتيجية لمواجهة الهيمنة الأمريكية في الفضاء الأوراسي وفي الساحة الدولية؟.

سعيا للإجابة على الإشكالية، تحاول هذه الدراسة اختبار الفرضية التالية:

التحديات الإستراتيجية المشتركة التي تفرضها الأحادية الأمريكية على المحور الروسي- الصيني، هي التي أدت إلى جعل منظمة شنغهاي كإطار لمأسسة الجهود وكأداة إستراتيجية يرتكز عليها المحور الروسي- الصيني لمواجهة الهيمنة الأمريكية في الفضاء الأوراسي وعلى مستوى النظام الدولي.

تحاول هذه الدراسة، معالجة الموضوع بالاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي، من خلال ليس فقط الاكتفاء بتوصيف الظاهرة، وإنما أيضا البحث عن أطر تحليلية وتفسيرية معمقة للموضوع محل الدراسة، بالإضافة إلى الاعتماد على الاقتراب البنيوي الوظيفي، الذي يركز على مفهومي **"البنية" و"الوظيفة"**، وبالتالي دراسة منظمة شنغهاي كإحدى **البنى** الفاعلة في النظام الدولي، التي يحاول المحور الروسي-الصيني توجيهها لأداء **وظائف إستراتيجية** متعددة، ومن ضمنها السعي لمواجهة الأحادية الأمريكية والتصدي لمنطقها الهيمني.

سعيا للإجابة على الإشكالية واختبار الفرضية، فقد تم تقسيم هذه الدراسة إلى هيكلية منهجية متضمنة للمحاور التالية:

1. منظمة شنغهاي للتعاون: النشأة، المبادئ والأهداف.
2. القيمة الجيواستراتيجية لمنظمة شنغهاي: قوة وازنة في النظام الدولي.
3. الأحادية الأمريكية كتحدي إستراتيجي مشترك للمحور الروسي-الصيني في إطار منظمة شنغهاي.
4. منظمة شنغهاي للتعاون كأداة إستراتيجية للسياسة الروسية-الصينية لمواجهة الهيمنة الأمريكية.

1. منظمة شنغهاي للتعاون: النشأة، المبادئ والأهداف

أ. نشأة وتطور المنظمة: من شنغهاي الخماسية إلى منظمة شنغهاي للتعاون:

يعتبر إنشاء منظمة شنغهاي للتعاون "SCO" "Shanghai Cooperation Organization " فكرة صينية بامتياز (Djalili, Kellner, 2006, P.12)، حيث وقعت الصين سنة 1996 اتفاقية مع روسيا وكازاخستان وقيرغيزستان وطاجيكستان، لتأسس بذلك لما عرف "بمجموعة شنغهاي" أو "شنغهاي الخماسية"، وكانت الصين تهدف من وراء ذلك، إلى ترتيب العلاقات الثنائية والجماعية بين الأطراف، وكذا جعل "خماسية شنغهاي" منتدى نشط للحوار بشأن التسوية السلمية للقضايا الحدودية العالقة بين الصين وروسيا من جهة، ومع الدول الحديثة الاستقلال في آسيا الوسطى التي تتقاسم أطول حدود في آسيا مع الصين من جهة أخرى. (Djalili, Kellner 2008, P.6).

بالإضافة إلى التأكيد على أولوية الأمن في المناطق الحدودية ونزع السلاح فيها، وكذا تعزيز إجراءات بناء الثقة، وتحسين الأوضاع المشجعة على تطوير وتوسيع التبادل التجاري وتحقيق التنمية في الأقاليم التي تقع غرب الصين (آسيا الوسطى)، وقد تم إثراء اتفاقية شنغهاي بوثائق إضافية تم التوصل إليها أثناء لقاءات القمة السنوية في ألماتا في 1998، وبتشكيك في 1999 ودوشانبي في سنة 2000. (Eisenbaum 2010, P. 151).

وفي 15 جوان 2001، تحولت "خماسية شنغهاي" إلى منظمة دولية إقليمية ذات أهمية جيواستراتيجية، تعرف بمنظمة شنغهاي للتعاون، تضم في عضويتها كلا من روسيا،الصين، كازاخستان، طاجيكستان، قيرغيزستان وأوزبكستان، علاوة على هذه الدول الستة الدائمة العضوية، تضم منظمة شنغهاي

للتعاون أربع دول تمتلك صفة **"عضو مراقب"**، وهي الهند، إيران، منغوليا وباكستان، وشركاء حوار هي سريلانكا وبيلاروسيا، بالإضافة إلى **ضيوف**، هم منظمة رابطة دول جنوب شرق أسيا (الآسيان)، منظمة كومنولث الدول المستقلة وأفغانستان. (Huasheng 2002, P.34).

وقد أقر الميثاق التأسيسي للمنظمة تطوير وتوسيع آفاق التعاون الإقليمي، لتشمل جميع المجالات السياسية والأمنية والاقتصادية والثقافية...الخ. (Eisenbaum 2010, P. 156-158).

ب. مبادئ وأهداف منظمة شنغهاي للتعاون:

انطوى كل من إعلان دوشانبي (عاصمة طاجيكستان) الموقع من طرف "شنغهاي الخماسية" عام 2000، وكذا الميثاق التأسيسي لمنظمة شنغهاي للتعاون الصادر عام 2002، على العديد من المبادئ والأهداف الموجهة للمنظمة، ومن ذلك: (غيل 2009، ص. 74).

- تعزيز سياسة الثقة المتبادلة وعلاقات حسن الجوار بين الدول الأعضاء.
- رفض اللجوء إلى القوة أو التهديد باستخدامها على الصعيد الدولي، دون موافقة مجلس الأمن.
- دعم مبدأ الصين الموحدة وموقف روسيا الاتحادية تجاه جمهورية الشيشان.
- الالتزام باحترام سيادة الدول وعدم التدخل في الشؤون الداخلية.
- تطوير التعاون بين الدول الأعضاء، في المجالات السياسية والاقتصادية والتكنولوجية والأمنية...الخ.
- العمل على تحقيق السلام والاستقرار الإقليمي، من خلال مواجهة التهديدات الأمنية المحدقة بالمنطقة.
- رفض إقامة منظومة دفاع صاروخي تكتيكي قائمة على أساس جهة واحدة في منطقة آسيا-المحيط الهادي، قد تهدد الاستقرار، وتؤدي إلى السباق نحو التسلح.
- العمل على تطوير الأفكار التي من شأنها المساهمة في بلورة نظام سياسي واقتصادي عالمي ديمقراطي عادل وعقلاني ومتوازن، وكذا التسليم بالنزعة إلى اعتماد التعددية القطبية، ورفض محاولة أي دولة أو مجموعة من الدول الانفراد بالقرار العالمي واحتكار الشؤون الدولية.

تعد كل من الصين وروسيا بمثابة **نواة المنظمة**، وهما يضطلعان معا بدور **القاطرة الإقليمية**، وبأداء أدوار محورية في مواجهة التحديات الأمنية المشتركة في منطقة آسيا الوسطى، وبخاصة التصدي لما يعرف **"بمثلث القلق الأمني"** الملازم لمنظمة شنغهاي للتعاون، والمتمثل في **"التطرف الديني والعرقي- الإرهاب- الانفصال"**، لاسيما في إقليم كسينجيانج بالنسبة للصين والشيشان بالنسبة لروسيا، وكذا احتواء التهديدات الناجمة عن **المشكلات والأزمات الهيكلية** التي تعرفها دول آسيا الوسطى الحديثة الاستقلال، بالإضافة إلى مواجهة تهديدات الجريمة المنظمة، تجارة المخدرات، أمن الحدود، أمن الطاقة، انتشار أسلحة الدمار الشامل، وبخاصة الصراعات العرقية التي باتت تعصف بالمنطقة وتقوض أمنها الإقليمي. (Djalili, Kellner 2008, P.6).

2. القيمة الجيواستراتيجية لمنظمة شنغهاي: قوة وازنة في النظام الدولي

أ. قراءة في مدخلات وعناصر القوة التي تتمتع بها منظمة شنغهاي:

بالرغم من أن منظمة شنغهاي للتعاون، نشأت كما يقول **"بوتين"** "لتحقيق أهداف متواضعة مثل ترسيم الحدود." (نعمة 2013، ص.417)، بيد أن المنظمة اتسعت نشاطاتها واكتسبت خبرة مع تطورات الساحة الإقليمية والدولية، فإنها ما فتئت أدوارها السياسية والعسكرية أن ترسخت بعامل الزمن بما يشبه تحالف سياسي وعسكري جديد يقف في وجه المشروع الأمريكي الزاحف في الفضاء الآسيوي، وفي منطقة آسيا الوسطى بصفة خاصة (وناسي2013، ص.197).

وتأسيسا على ذلك، يمكن القول، أن منظمة شنغهاي للتعاون، أصبحت بعدما انضمت إليها كل من إيران والهند وباكستان ومنغوليا، بصفة عضو مراقب، تشكل **قطبا جيواستراتيجيا وازنا في الفضاء الآسيوي وفي النظام الدولي بصفة عامة**، خاصة وأن هذه المنظمة باتت تمتلك من مدخلات وعناصر القوة الشاملة سواء:

- ❖ **على المستوى العسكري:** من خلال تمتع بعض الدول الأعضاء بقدرات نووية، على غرار روسيا والصين.
- ❖ **على المستوى السياسي:** من خلال تمتع الصين وروسيا بحق النقض في مجلس الأمن الدولي.
- ❖ **على المستوى الاقتصادي:** من خلال تواجد قوى فاعلة في حركة الاقتصاد العالمي داخل المنظمة مثل الصين وروسيا "العائدة" والهند "عضو مراقب".
- ❖ **على المستوى الطاقوي:** باعتبار دول آسيا الوسطى الأعضاء في المنظمة، تمثل ثاني أكبر احتياطي عالمي من النفط بعد الخليج العربي.

بناء على مدخلات وعناصر القوة العسكرية والسياسية والاقتصادية التي تمتلكها المنظمة، فقد ذهب بعض الباحثين، إلى وصفها بأنها **منتدى لمناهضة الهيمنة الأمريكية**، فضلا عن كونها عبارة عن **"أوبيك نووي"**، واجتماعاتها تؤذن بميلاد "**حلف وارسو جديد"** ليس في أوروبا الشرقية ولكن في الفضاء الآسيوي (خانا 2009، ص.126).

ب. منظمة شنغهاي للتعاون كقوة وازنة في النظام الدولي:

من الثابت، أن مدخلات وعناصر القوة الشاملة (نووية، اقتصادية، سياسية، طاقوية) التي تتمتع بها منظمة شنغهاي التي يقودها المحور الروسي-الصيني، تؤهلها لتشكل **قوة وازنة ومؤثرة في النظام الدولي**، كما ستعطي لها **قوة دفع هامة** للاضطلاع بأدوار فاعلة في **التوازنات الجيواستراتيجية العالمية**، وفي التأثير على المصالح الجيوسياسية للولايات المتحدة ليس فقط في الفضاء الأوراسي، وإنما أيضا في الساحة الدولية.

وقد تعززت أكثر قوة ومكانة المنظمة، خصوصا بعدما أبدت العديد من الدول الرغبة في اكتساب العضوية في هذه المنظمة، التي تقودها أكبر قوتين في القارة الآسيوية وفي العالم بعد الولايات المتحدة الأمريكية، كما أن الدول التي تتمتع بصفة عضو مراقب في المنظمة، مثل الهند وإيران وباكستان، باتت تطمح إلى العضوية الكاملة فيها، الأمر الذي يعزز من ثقل ومكانة المنظمة ومن قوة تأثيرها الجيواستراتيجي في الساحة العالمية (المشهداني 2017، ص280).

والملاحظ أنه مع عامل الوقت، اكتسبت منظمة شنغهاي خبرة في الممارسة الدولية، وبذلك، أخذت تتشكل في الأفق الدولي توازنات تكشف عن نمو قوة مؤثرة في السياسة الدولية، خاصة وأن المنظمة باتت تطرح رؤى ومواقف مخالفة لتوجهات السياسة الأمريكية في الفضاء الأوراسي، وفي إدارة الأزمات الدولية بصفة عامة (نعمة2013،ص.432).

على ضوء ما سبق، يبدو أن منظمة شنغهاي للتعاون ستتمكن في المستقبل من اجتراح مكاسب مهمة في العديد القضايا الدولية، لاسيما في الفضاء الأوراسي، وهو ما يجعلها طرفا أساسيا في التوازنات الجيواستراتيجية خاصة مع امكانية انضمام الهند وإيران إلى المنظمة، علاوة على احتمال تحول الصين إلى أكبر مركز اقتصادي، وانتقالها بمساعدة روسيا إما بالتحالف العسكري معها، وإما بتزويدها بأسلحة حديثة إلى قوة عسكرية ضاربة، فإن موازين القوى ستنقلب في القارة الأوراسية من ناحية، وستعمل من ناحية أخرى على تصحيح مسارات التوازنات الجيواستراتيجية في النظام الدولي (أسبين 2012، ص. 110).

3. الأحادية الأمريكية كتحدي إستراتيجي مشترك للمحور الروسي- الصيني في إطار منظمة شنغهاي

أ. الأحادية الأمريكية كتحدي مشترك للمحور الروسي- الصيني في الفضاء الأوراسي:

تشكل الأحادية الأمريكية أحد التحديات الإستراتيجية المشتركة، التي تجمع المحور الروسي-الصيني في إطار منظمة شنغهاي، خاصة في ظل وجود إدراكات مشتركة بشأن التهديدات التي تشكلها الهيمنة الأمريكية على مصالح الدولتين، ليس فقط في الفضاء الآسيوي، وإنما أيضا على مستوى الساحة الدولية.

وتأسيسا على ذلك، فقد أدت قائمة من التحديات المشتركة، إلى دفع المحور الروسي- الصيني لجعل منظمة شنغهاي للتعاون كظهير وأداة لموازنة ومواجهة التغلغل الأمريكي – الأطلسي، الذي وصل إلى تخوم روسيا والصين عبر التواجد العسكري في آسيا الوسطى تحت غطاء الحرب على الإرهاب.

ولذلك، فقد عارضت كل من روسيا والصين السياسة الانفرادية الأمريكية في التعامل مع القضايا الدولية، وبخاصة في مجال مكافحة الإرهاب، وعلى هذا، أكدت كل من موسكو وبكين في اجتماع منظمة شنغهاي للتعاون سنة 2003، " أن الحرب على الإرهاب يجب أن تقوم على أساس القانون الدولي وليس على السياسات الانفرادية."(نعمة 2013، ص.425).

كما أبدى المحور الروسي- الصيني نوع من القلق وعدم الارتياح تجاه التواجد العسكري الأمريكي الطويل الأجل في آسيا الوسطى بذريعة مكافحة الإرهاب، ذلك أن التواجد الأمريكي في المنطقة لا يهدف فقط إلى احتواء كل من روسيا والصين، وإنما أيضا تسعى الولايات المتحدة لتوظيفه للسيطرة على مصادر الطاقة وخطوط ومسارات نقلها في آسيا الوسطى- بحر قزوين، الأمر الذي يشكل مصدر تهديد للأمن الطاقوي الصيني والروسي.

وتعد السياسة التي انتهجتها الولايات المتحدة لإضعاف روسيا والصين والضغط عليهما، من خلال **دعم الحركات الانفصالية في الشيشان، وفي إقليم كسينجيانج وتايوان**... أحد أهم التحديات الإستراتيجية المشتركة التي تنذر بتهديد الوحدة الترابية والسلامة الإقليمية لكل من روسيا والصين، ضف إلى ذلك المخاطر المترتبة عن نشر الدرع الصاروخي في تشيكيا وبولندا، والسعي إلى ضم جورجيا وأوكرانيا إلى الحلف الأطلسي،

فضلا المخاطر الناتجة عن دعم **"الثورات الملونة"** في دول فضاء الكومنولث الروسي، في جورجيا في نوفمبر 2003، وأوكرانيا في ديسمبر 2004، وفي قيرغيزستان في مارس 2005. (Djalili, Kellner, 2006, P.5)

وعليه، لقد عكست الإستراتيجية الأمريكية في آسيا، تنامي المخاوف الروسية-الصينية تجاه هذه الإستراتيجية، القائمة على دعم الحركات الانفصالية في الأقاليم الصينية والروسية، وكذا إذكاء وتفجير الصراعات الإثنية والعرقية، ودعم الثورات الملونة في المنطقة، مما زاد من مخاوف كل من روسيا والصين من امكانية امتدادها إلى داخل أراضيها.

وقد تأكدت هذه المخاوف بعد "ثورة التوليب" "Tulip Revolution" التي اندلعت في قيرغيزستان التي تجمعها حدود مشتركة مع روسيا والصين والمدعومة أمريكيا وغربيا، والتي رأت فيها روسيا استمرارا لحلقات "الثورات الملونة" في الفضاء السوفياتي سابقا، حيث شكلت هذه الثورات حجر الزاوية في الإستراتيجية الأمريكية لتغيير الأنظمة في جمهوريات آسيا الوسطى بدعوى نشر الديمقراطية وحقوق الإنسان، والتي رأت فيها كل من روسيا والصين سلسلة من التهديدات الجيوسياسية والجيواقتصادية للأمن القومي لكلتا الدولتين، كما أنها عامل أساسي في زعزعت الاستقرار الإقليمي، وإثارة الاضطرابات المتنقلة عبر الحدود بفعل تداخل وتشابك العوامل الإثنية والدينية والعرقية في كل الفضاء الممتد بين القوقاز وروسيا والأقاليم الغربية للصين مرورا بآسيا الوسطى. (Djalili, Kellner, 2006, PP.5-6).

ولعل هذا ما دفع بكين للإعراب، عن قلقها بشأن مخاطر انتشار عدوى الثورات الملونة في قيرغيزستان في مارس 2005، وأذربيجان في ماي 2005، في إقليم كسينجيانج غرب الصين الذي تقطنه أقلية من الإيغور المسلمين المتطلعين للانفصال لإقامة دولة "تركستان الإسلامية" بدعم من الأطراف الغربية، وبخاصة الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي وتركيا. (وناسي 2013، ص.245).

على ضوء ما تقدم، يمكن القول، أن المحور الروسي- الصيني في إطار منظمة شنغهاي، يتقاسم هواجس وتحديات إستراتيجية مشتركة ناتجة عن السياسة الأمريكية الساعية إلى:

- دعم الحركات الانفصالية في الأقاليم الصينية (كسينج يانج، تايوان)، والروسية (في الشيشان).
- دعم الثورات الملونة والعمل على نشرها داخل الأقاليم الروسية والصينية.
- اتخاذ القواعد العسكرية في آسيا الوسطى كنقاط ارتكاز لفرض طوق إستراتيجي على روسيا والصين.
- استغلال التواجد العسكري الأمريكي في آسيا الوسطى، للسيطرة على مصادر الطاقة وخطوط نقلها، الأمر الذي يشكل مصدر تهديد للأمن الطاقوي الروسي والصيني.

ب. الأحادية الأمريكية كتحدي مشترك للمحور الروسي- الصيني في النظام الدولي:

من الواضح أن الأحادية الأمريكية، لا تشكل فقط تحدي إستراتيجي مشترك للمحور الروسي-الصيني في الفضاء الأوراسي، وإنما أيضا حتى على مستوى النظام الدولي. إذ يمكن إبراز وتبيان المخاطر والتحديات التي تشكلها الأحادية الأمريكية على روسيا والصين في الساحة الدولية في النقاط التالية:

- إعلان الولايات المتحدة الأمريكية، بشكل انفرادي، انسحابها من معاهدة الحد من الصواريخ الباليستية (ABM)، حيث عزمت على إقامة الدرع المضاد للصواريخ في بولندا وتشيكيا، وهو ما يمثل انتهاك صارخ لهذه المعاهدة .
- انتهاك الشرعية الدولية، من خلال التدخلات العسكرية الانفرادية بذريعة مكافحة الإرهاب في أفغانستان والعراق.
- الانفراد بالقرار العالمي، وتغليب منطق القوة والغطرسة وتهميش باقي الدول الفاعلة في النظام الدولي، وهو ما يمثل انتهاك لتعددية الأطراف "Multilateralism". وفي هذا السياق تقول **"كوندوليزا رايس"** أن مفهوم المجتمع الدولي وتعددية الأطراف هي مجرد أوهام ولا توجد أية مصالح مشتركة في العالم." (سعدي 2006، ص.336).
- السياسات الحمائية التي تنتهجها الولايات المتحدة، خاصة في مجالات الاقتصاد والتجارة والبيئة.
- الانسحاب الأمريكي من الاتفاق النووي مع إيران التي تشكل حليف إستراتيجي للمحور الروسي-الصيني.
- التعامل الأمريكي باستخفاف مع القانون الدولي الإنساني، من خلال وضع العراقيل أمام إرساء محكمة جنائية دولية فعالة، بغية الإفلات من محاكمة الجنود الأمريكيين أثناء ارتكابهم لجرائم الحرب أو جرائم ضد الإنسانية.
- معارضة مجهودات المجتمع الدولي للحد من انتشار أسلحة الدمار الشامل، حيث رفضت الولايات المتحدة الأمريكية توقيع اتفاقية منع التجارب النووية.
- رفض إدارة المحافظين الجدد بروتوكول كيوتو الخاص بالتغير المناخي، ومؤخرا قرارات قمة باريس حول المناخ، وكذا رفض الاتفاقية المتعلقة ببيع ونقل الأسلحة الصغيرة، والبروتوكول المتعلق باتفاقية حظر الأسلحة البيولوجية، (بوث، ديون 2005، ص. 158-305).

ومن هذا المنطلق، أصبحت الولايات المتحدة، خاصة بعد أحداث 11 سبتمبر، تتصرف بمنطق الإمبراطورية المتغطرسة التي لا تعير أي اهتمام لمصالح وإرادات باقي أعضاء المجتمع الدولي، الأمر الذي أدى إلى تراجع القانون الدولي وتقويض الشرعية الدولية بفعل تصاعد السياسات الانفرادية الأمريكية، وبالتالي خرق كل القواعد المعيارية التي أقرها القانون الدولي كمبدأ عدم التدخل واحترام سيادة الدول (ولد أباه 2004، ص.132)، **وبهذا، تكون الولايات المتحدة قد وضعت أمام الأمر الواقع الدول الطامحة إلى بناء نظام دولي متعدد الأقطاب يضمن لها هامش من المناورة على المسرح الدولي، مثل روسيا والصين.** (غليون 2005، ص.58).

وعليه، إن هذه التحديات المشتركة التي تواجه كل من روسيا والصين، عززت تقارب مواقف الدولتين في إطار منظمة شنغهاي، التي حاول المحور الروسي– الصيني إلى تحويها إلى أداة فعالة لمواجهة الأحادية الأمريكية ليس فقط في الفضاء الأوراسي وإنما أيضا على الساحة العالمية.

4. منظمة شنغهاي للتعاون كأداة إستراتيجية للسياسة الروسية- الصينية لمواجهة الهيمنة الأمريكية

أ. منظمة شنغهاي كأداة لمناهضة الهيمنة الأمريكية في الفضاء الأوراسي:

أدت التحديات الإستراتيجية المشتركة التي فرضتها الأحادية الأمريكية خاصة بعد أحداث 11 سبتمبر 2001، إلى دفع المحور الروسي- الصيني إلى جعل منظمة شنغهاي، كإطار إقليمي **للعمل المشترك ولتعبئة القوى والجهود لمناهضة الهيمنة الأمريكية**، ليس فقط في الفضاء الأوراسي. (Facon, 2006, P.27).

وقد أفضت أحداث 11 سبتمبر 2001، وما تلاها من تغلغل أمريكي-أطلسي على الحدود الروسية والصينية في آسيا الوسطى، إلى إدراك الدولتين مدى المخاطر الجيواستراتيجية المترتبة عن التواجد الأمريكي في منطقة ذات أهمية حيوية، تسعى الولايات المتحدة إلى توظيفها **كنقطة ارتكاز** لاحتواء روسيا والصين، والسيطرة على مصادر الطاقة وخطوط نقلها، فضلا عن التحكم في التوازنات الجيوسياسية والإقليمية في المنطقة.

انطلاقا من هذا التحدي الإستراتيجي الذي يفرضه التواجد الأمريكي في المنطقة، اتجهت الجهود الروسية والصينية في إطار منظمة شنغهاي للتعاون، إلى العمل على غلق آخر قاعدة عسكرية أمريكية في آسيا الوسطى، وإنهاء التواجد الأطلسي في المنطقة، وهو الأمر الذي أكدته منظمة شنغهاي من خلال قرارات قمة أستانا في 5 جويلية 2005، حيث أكدت على مناهضة كل أشكال التدخل الخارجي في آسيا الوسطى ورفض عسكرة المنطقة بذريعة مكافحة الإرهاب، وطالبت القوات الأمريكية بالرحيل من قواعدها في آسيا الوسطى، كما دعت التحالف الذي يعمل على مكافحة الإرهاب في أفغانستان إلى تحديد جدول زمني لانسحابه النهائي من المنطقة. (Eisenbaum2010, P.160).

وعلى هذا، فقد أكد البيان الذي أصدرته المنظمة على ما يلي: "بالنظر إلى انتهاء المرحلة العسكرية العملية للحملة التي تستهدف الإرهاب في أفغانستان، ترى الدول الأعضاء في منظمة شنغهاي للتعاون لزاما على أعضاء التحالف المعادي للإرهاب، تحديد جدول زمني نهائي لاستخدامهم المؤقت لمنشآت البنية التحتية والقواعد العسكرية في المنطقة." (غيل 2009، ص.239)، وقد نجحت المنظمة بالفعل في غلق القاعدة الأمريكية "كاراشي خان أباد" الجوية في أوزبكستان، وقاعدة "ماناس" في قيرغيزستان. (Eisenbaum,2010, P.160).

ومن هنا، تظهر أهمية الشراكة الإستراتيجية الروسية-الصينية في إطار منظمة شنغهاي التي أصبحت كأداة للحد من النفوذ الأمريكي-الأطلسي المتنامي في المنطقة، وهو ما يشكل تهديدا مباشرا للمصالح الروسية في مجالها الحيوي، وعاملا أساسيا في حصار واحتواء الصين ومنعها من التمدد الإقليمي غربا. وعلى هذا، عمدت كل من روسيا والصين إلى تحويل منظمة شنغهاي إلى **ضرب من حلف وارسو جديد**، وجعل المنظمة **كجبهة مضادة وموازنة** للترتيبات الأمنية الأمريكية-الأطلسية في آسيا الوسطى، رغم أن أدبيات ووثائق المنظمة تقر بأنها ليست موجهة ضد أي طرف، كما أنها أنها ليست كتلة سياسية-عسكرية، أو طوق موجه ضد قوة ما، بل إنها لا تتخطى كونها ناديا للنقاش.(Lukin, A. 2007, P.150).

بيد أن مساعي روسيا لتعزيز البنى العسكرية وإجراء تمارين عسكرية منذ 2005-2007، تزعم أنها لأغراض محدودة، إلا أنها في الواقع ذات دلالات أمنية- عسكرية، يتمثل فيها التعامل مع مشاهد أقرب إلى

مناورات حلف وارسو، الأمر الذي أثار مخاوف الولايات المتحدة من اضطلاع المنظمة **بدور الرافعة الإقليمية**، وتحويلها إلى جهة مضادة موازنة ومنافسة للترتيبات الأمنية الأمريكية في آسيا الوسطى. (نعمة، 2013، ص435).

والملاحظ أنه مع نهاية عام 2011، بدأت منظمة شنغهاي في البحث عن التوسع في القارة الآسيوية جنوبا، بضم الهند وباكستان وكوريا الشمالية ومنحهما العضوية الكاملة، بدلا من صفة مراقب لهدف احتواء النفوذ الأمريكي في القارة الآسيوية، وتكمن خطورة هذا التحول نحو جنوب شرق آسيا في استدعائه لتحالف دولي مناوئ للولايات المتحدة واختراقه لمنطقة حيوية لمصالحها، مما دفع الأخيرة لدعم وجودها العسكري وتوطيد منظومة تحالفاتها الإقليمية.(المشهداني 2017، ص.282).

كما لجأ المحور الروسي-الصيني، في إطار السعي لتعظيم القوة وتكوين جهة موسعة لمناهضة للترتيبات العسكرية الأمريكية- الأطلسية في المنطقة، إلى توقيع اتفاقية تعاون بين منظمة شنغهاي ومنظمة معاهدة الأمن الجماعي في مارس 2007. (Eisenbaum,2010, P.162)، ويعد هذا التقارب بين المنظمتين خطوة هامة نحو إقامة نظام دفاعي عسكري، يفتح أفاق لإجراء مناورات عسكرية مشتركة تشارك فيها الصين، لاسيما أن المحور الروسي-الصيني كما قال **"نيكولاي بورديجا"** الأمين العام لمنظمة معاهدة الأمن الجماعي في مطلع 2006، "تجمعه الكثير من المصالح الأمنية المشتركة، وفي تقييم الموقف العام إقليميا وعالميا." (نعمة 2013، ص.ص 409-410).

ومن بين تلك المصالح المشتركة، معارضة نشر الدرع الصاروخي في بولندا وتشكيا، ورفض التواجد العسكري الأمريكي في آسيا الوسطى ولعبة التطويق التي تمارسها الولايات المتحدة، ومعارضة الدعم الأمريكي للحركات الانفصالية في الأقاليم الصينية والروسية، فضلا عن مناهضة الأحادية الأمريكية...الخ.

ويعتبر تفعيل التعاون العسكري الروسي-الصيني في إطار منظمة شنغهاي، أحد أهم أركان الشراكة الإستراتيجية بين البلدين، باعتباره يجسد المنظور الإستراتيجي الأمني وسياسة الدفاع لكل منهما، في ضوء متغيرات وتحديات البيئة الإقليمية والعالمية، وبخاصة المخاطر التي تفرضها الهيمنة الأمريكية، وقد سمح هذا التعاون الإستراتيجي في إطار منظمة شنغهاي، بإجراء سلسلة من التمارين والمناورات العسكرية المشتركة بين موسكو وبكين، امتدت من 18 إلى 25 أوت 2005، وقد أطلق عليها "بمهمة السلام". (المشهداني 2017، ص.278).

والملاحظ، أن هذه المناورات المشتركة، هي ليست فقط من أجل الضغط على الولايات للانسحاب من المنطقة، بعدما نجحت في الحصول على امتيازات وتسهيلات عسكرية أفضت إلى تكريس تواجد عسكري طويل الأجل في آسيا الوسطى، التي تحظى بأهمية بالغة بالنسبة للحرب الدائرة على الجهة الأفغانية، وإنما أيضا هي رسالة للولايات المتحدة لعدم الانجرار في دعم الحركات الانفصالية في الأقاليم الروسية والصينية على غرار تايوان، كسينجيانج والشيشان...الخ.

وعليه، إن هذا التعاون العسكري الروسي-الصيني في إطار منظمة شنغهاي، ينذر **بميلاد حلف وارسو جديد**، وعلى هذا الأساس، أصبحت منظمة شنغهاي تثير مخاوف الولايات المتحدة، ولذلك، يرى **"أريل كوهين"** الباحث البارز في دائرة الدراسات الروسية الأوراسية في "Heritage Fondation"، "أن التعاون الروسي الصيني في إطار منظمة شنغهاي، وأدوارهما في آسيا الوسطى يجب أن تُدق لها أجراس الإنذار في الولايات المتحدة، خاصة في ظل الأهمية الحيوية لهذه المنطقة الغنية بالطاقة بالنسبة للقوة الأمريكية ولمستقبلها العالمي." (وناسي 2013، ص.200)، وهو الأمر الذي جعل الولايات المتحدة حذرة في سياستها حيال المنظمة، وفي

هذا الإطار، أكد **"بولات نورغاليف"** ، الأمين العام لمنظمة شنغهاي في 27 فيفري 2009، بقوله: "إن الولايات المتحدة تراقب بشدة نشاطات المنظمة." (نعمة 2017، ص.432).

ب. منظمة شنغهاي كأداة لمناهضة الهيمنة الأمريكية على مستوى النظام الدولي:

تعد منظمة شنغهاي للتعاون، **آلية هامة لمأسسة الجهود الروسية-الصينية** لمناهضة الأحادية الأمريكية، ورفض السياسات التوسعية التي تهدف إلى **استدامة الهيمنة الأمريكية على النظام الدولي**. وفي هذا الإطار، أكد المحور الروسي-الصيني بمناسبة الاحتفال بالذكرى الستين لنهاية الحرب الباردة في 6 ماي 2005، على الدعوة **لإقامة نظام دولي متعدد الأقطاب** يقوم على التكافؤ والمساواة وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول. (Burdman, 1998, PP.48-49).

كما أكد البيان المشترك الذي أصدره الطرفان في 4 جويلية 2005 "أن الدول وحدها تقدر سياستها باستقلال تام بشأن شؤونها الداخلية والخارجية، وأن دول العالم لا ينبغي أن توزع إلى معسكر قائد وآخر خاضع، ولا يجب أن يكون هناك سعي لاحتكار الهيمنة على الشؤون الدولية، ولا ينبغي تسوية الخلافات عبر الأحادية والإرغام أو التهديد باستخدام القوة." (نعمة 2013، ص.123).

وفي السياق ذاته، أكد البيان الختامي للمؤتمر التاسع لرؤساء دول منظمة شنغهاي الذي عقد في مدينة إيكاترينبرغ ما بين 15 و 16 حزيران 2009، على العديد من النقاط الهامة، ومن ذلك: (المشهداني 2017، ص.ص 281-282).

- ضرورة التوجه إلى بناء نظام عالمي متعدد الأقطاب بعيدا عن الأحادية الأمريكية.
- دعوة الدول الأعضاء في المجتمع الدولي، للعمل سويا لإعادة صياغة نظام مالي واقتصادي عالمي قائم على العدالة والمساواة، ويسمح للجميع بالاستفادة من فوائد العولمة وبشكل مناسب.
- تعزيز مركزية ومشاركة منظمة الأمم المتحدة في العلاقات الدولية وتفعيل آليات عملها لتتواءم مع مخاطر العصر وتحدياته.
- إصلاح مجلس الأمن من خلال توسيع عضويته حتى لا يبقى حكرا على الدول الخمسة الكبار.

علاوة على ما سبق، فقد بحث اجتماع منظمة شنغهاي للتعاون في تشرين 2011، موضوع وجود عدو مشترك، ممثلا في الحلف الأطلسي الذي تقوده الولايات المتحدة، وانتهى الاجتماع بإبرام معاهدة أمنية بين الدول الأعضاء التي تمتلك من القدرات والمؤهلات، التي تمكنها من تحقيق التوازن الجيواستراتيجي مع الحلف الأطلسي. كما أكدت قمة شنغهاي المنعقدة في 13-14 سبتمبر 2013، على أهمية تحويل النظام الدولي الحالي من نظام أحادي القطبية بزعامة أمريكية إلى نظام متعدد الأقطاب، كما نجحت القمة في بلورة مواقف ورؤى مختلفة من زوايا كثيرة عن الرؤية والسياسة الأمريكية في الكثير من القضايا الإقليمية والعالمية.

والملاحظ أن منظمة شنغهاي للتعاون، هي بمثابة **تجسيد لرؤية روسية- صينية لعالم ما بعد النيوليبرالية**، وردا آسيويا على العولمة بمفهومها الغربي "لأمركة العالم". كما أن دعوات أعضاءها للحوار بين الحضارات المختلفة تشكل جوابا على بطلان دعاوى صراع الحضارات التي طرحها "هانتينغتون" في تفسيره لمستقبل الصراعات الدولية. (Huasheng, 2002, P.38).

وعليه، فالعلاقات الروسية- الصينية في إطار منظمة شنغهاي، تقوم على تقاسم مجموعة من الرؤى المشتركة بخصوص رفض المساعي الأمريكية **لتنميط العالم وفق النموذج الأمريكي-الغربي**، وما ينطوي عليه من قيم سياسية وحضارية هي وليدة الفكر السياسي الغربي بالدرجة الأولى، وما أنتجه ذلك الفكر من مفاهيم سياسية، من قبيل الحكامة العالمية، التدخل الإنساني، عولمة حقوق الإنسان، مسؤولية الحماية، السيادة المحدودة، كآليات للإمبريالية الجديدة، وبالمقابل، يراهن المحور الروسي – الصيني على أهمية التمسك بشدة بالمفهوم التقليدي لمبدأي عدم التدخل والسيادة. (غيل 2009، ص.ص 172-173).

ويُفهم من ذلك، أن المحور الروسي – الصيني يسعى لاتخاذ هذه المبادئ المعيارية التي أقرها القانون الدولي، كحصن منيع في مواجهة المحاولات الأمريكية لدعم الحركات الانفصالية في الأقاليم الصينية والروسية وبخاصة في الشيشان، تايوان وكسينجيانج والتيبت.

خاتمة:

من خلال تضاعيف صفحات هذه الدراسة، تم التوصل إلى مجموعة من النتائج، ومن ذلك، أن التحديات الإستراتيجية المشتركة التي تفرضها الأحادية الأمريكية على المحور الروسي- الصيني كالإنفراد بالقرار العالمي وتقويض تعددية الأطراف، التواجد العسكري الأمريكي في الفضاء الأوراسي للسيطرة على مصادر الطاقة ولاحتواء روسيا والصين، وكذا العمل على دعم الحركات الانفصالية في الأقاليم الروسية (الشيشان) والصينية (كسينجيانج وتايوان)، كلها عوامل دفعت روسيا والصين إلى جعل منظمة كأداة إستراتيجية لمناهضة الهيمنة الأمريكية في الفضاء الأوراسي وعلى مستوى النظام الدولي.

كما توصلت الدراسة إلى أن منظمة شنغهاي للتعاون لا تشكل فقط إطار للعمل المشترك لمأسسة الجهود الروسية-الصينية للثورة على الوضع القائم"**Status quo**" وعلى التوازنات الدولية الحالية، من خلال الدعوة إلى بناء نظام دولي متعدد الأقطاب، يضمن لها هامش أوسع من المناورة ومن حرية العمل في الساحة الدولية، وإنما أيضا تسعى كل من روسيا والصين لتوظيفها كمنبر للتشهير برفض المنظومة القيمية النيوليبرالية، وكل المساعي الهادفة إلى تنميط العالم وفق النموذج الغربي الأمريكي.

وبناء على ذلك، انتقلت منظمة شنغهاي من وضع التنظيم الإقليمي ذي الهدف المحدود، إلى وضع التنظيم الدولي الفاعل والهادف إلى مراجعة التوزيع العالمي للقوة والسلطة، والسعي إلى موازنة وكبح الهيمنة الأمريكية على المستويات الإقليمية والعالمية.

وتأسيسا على ما سبق، نخلص إلى القول، أن منظمة شنغهاي للتعاون باتت تشكل تحدي جيوسياسي كبير ليس فقط للإستراتيجية الأمريكية في المنطقة الأوراسية، وإنما أيضا لمستقبل القيادة الأمريكية للنظام الدولي، خاصة وأن هذه المنظمة باتت تشكل إطار لمأسسة ما حذر منه "**بريجينسكي**" وما أسماه "**ماكيندر**" بتحالف القوى البرية "**التيلوروكراتيا**" "**Telorocratia**" المتمثل في محور موسكو- بكين لمواجهة المنطق الهيمني "**للتالاسوكراتيا**" "**Thalassocratia**" الأمريكية.

قائمة المراجع

أولا: باللغة العربية:

1. أسبين، أ، ك. (2012). إمبراطورية الإرهاب: السياسة الأمريكية العابرة للقارات في الأمن والاقتصاد ومكافحة الإرهاب. ترجمة: وفيقة إبراهيم، بيروت: شركة المطبوعات للنشر والتوزيع.
2. بوث، ك، ديون، ت. (2005). عوالم متصادمة: الإرهاب ومستقبل النظام العالمي. ترجمة: صلاح عبد الحق. أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية.
3. خانا، ب. (2009). العالم الثاني: السلطة والسطوة في النظام العالمي الجديد. بيروت: الدار العربية للعلوم.
4. سعدي، م. (2006). مستقبل العلاقات الدولية من صراع الحضارات إلى أنسنة الحضارة وثقافة السلام. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
5. غليون، ب. (2005). العرب وعالم ما بعد 11 سبتمبر. دمشق: دار الفكر.
6. غيل، ب. (2009). النجم الصاعد، الصين: دبلوماسية أمنية جديدة. ترجمة: دلال أبو حيدر، بيروت: دار الكتاب العربي.
7. المشهداني، م، م. (2017). مستقبل التوازنات الجيواستراتيجية العالمية: دراسة في إستراتيجية الولايات المتحدة الأمريكية واستراتيجيات القوى المنافسة. عمان: شركة دار الأكاديميون للنشر والتوزيع.
8. نعمة، ك، هـ. (2013). روسيا في السياسة الآسيوية ما بعد الحرب الباردة. عمان: دار آمنة للنشر والتوزيع.
9. ولد أباه، ا. (2004). عالم ما بعد 11 سبتمبر 2001، الإشكاليات الفكرية والإستراتيجية. بيروت، الدار العربية للعلوم.
10. وناسي، ل. (2013). التفاعلات الإستراتيجية في آسيا الوسطى: دراسة في العلاقات بين مثلث القوة، الولايات المتحدة الأمريكية، روسيا والصين. أطروحة دكتوراه في العلوم السياسية، جامعة الحاج لخضر (باتنة): كلية الحقوق والعلوم السياسية.

ثانيا باللغة الأجنبية:

11. Burdman, M. (1998). "China, Russia Confirm Strategic Cooperation". Executive Intelligence Review. Vol 25, N°11.
12. Djalili, M-R. Kellner, T. (2006) " L'Asie Centrale : Terrain de Rivalités". Le Courrier des Pays de l'Est. N 1057. (5).
13. Djalili, M-R. Kellner, T. (2008). L'Asie Centrale Ancrage International et Régional. Bruxelles : Centre Européen de Recherches Internationales et Stratégiques. (CERIS).
14. Eisenbaum, B. (2010). " Négociation, Coopération Régionale et Jeu d'Influences en Asie Centrale: l'Organisation de Coopération de Shanghai". Politique Etrangère. N°1. (Printemps).
15. Facon, I. (2006) "L'Organisation de Coopération de Shanghai. Ambitions et Intérêts Russes". Le Courrier des Pays de l'Est. N° 1055. (3).
16. Huasheng, Z. (2002). "Establishment and Development of Shanghai Cooperation Organization". SIIS Journal. Vol 9. N°1.
17. Lukin, A. (2007). "The shanghai cooperation organization: what next". Global affairs". Vol 5. N°3.